

## من أخلاقنا الاجتماعية



﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتَيمِ إِلَّا بِالْمَتَّهِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الإسراء / 34). يربط كثير من الناس بين اليُتم والعَوَز، ويضربون المثل باليتيم في الفقر وال الحاجة. وينتبه قليلٌ من الناس إلى أنَّ اليُتم لا يلزم الفقر وال الحاجة وإن كان اليتيم يحتاج إلى رعاية وتعهُّد.

واليتيم هو كلّ إنسان مات أبوه وهو دون سن البلوغ؛ وهو في هذه الحالة فقد المُرشِّد والموجّه والمربّي الذي يرعى مصلحة هذا القاصر. وقد يكون المُتوفِّي رقيق الحال، وقد يكون غنياً يترك لورثته أموالاً وفيّرة. فاليتيم يحتاج إلى مَنْ ينفق عليه إن كان فقيراً، ويحتاج دائمًا إلى مَنْ يرعاه ويدير شؤونه.

ويحتاج اليتيم إلى التعامل مع الناس بيعاً وشراءً وإجارةً وغير ذلك من صنوف المعاملات و موقف الناس تجاه التعامل مع اليتيم مختلف:

- فمنهم مَنْ يرغّب في التعامل مع اليتيم لأنّه قاصرٌ، غرّ، صغيرٌ، قليل الخبرة، يسهل خداعه؛ فيشتري منه بأقلّ مما يساوي، ويبيعه بأعلى. فهو في كلا الحالتين يربح منه. وقد يضر باليتيم بيعاً وشراءً.

- ومنهم مَنْ يخشى الله تعالى ويحذرُ عضدهُ وانتقامه ويخشى إنْ تعامل مع اليتيم أن يظلمهُ فيتوقّي كلّ تعامل معه؛ وقد يضر ذلك باليتيم إنْ لم يجد مَنْ يتعامل معه. روى عن قتادة (رض) في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتَيمِ إِلَّا بِالْمَتَّهِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء / 34)، قال: كانوا لا يحالطونه في مالٍ ولا مأكلٍ ولا مركبٍ، حتى نزلات: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُهُمْ فَإِنَّهُمْ أَنْكُمْ﴾ (البقرة / 220).

توجه الآية الكريمة المسلم إلى منهج وسط بين الفئتين؛ فهي لا تنهى عن التعامل مطلقاً ولا تُطلق له الحرية في التعامل مطلقاً، وإنما توجهه لأن يتعامل معه بما يعود على اليتيم بأفضل منفعةٍ أحسنها. فإذا كان يتعاقد معه فليكن العقد لأجل زَفْع اليتيم، وليدحره على أن لا يظلمه ولا يبدُّ خَسْهُ ولا يغشّه. وإذا كان وليناً له فليكن عملهُ تنمية مال اليتيم والإتفاق عليه بالمعروف. وعلى المسلم أن يبقى راعياً لمصلحة اليتيم في التعامل معه تعاقداً، وفي الإشراف على

أمواله ورعاياه شؤونه إلى أن يكبر ويصل إلى سن الرشد حيث يصير قادرًا على إدارة شؤونه بنفسه؛ فإذا وصل إلى هذه المرحلة فعلى الولي أن يسلمه أمواله ويحاسبه لتبرأ ذمته أمامه، ثم يتولى صاحب المال القيام بشؤونه بنفسه.

وتأمر الآية في شفتها الثاني بالوفاء بالعهد. والعهد له حالات ثلاثة:

1- ما عاهد الله تعالى به إلى خلقه من الأوامر والنواهي والتکاليف؛ وفي هذا المعنى قال الزجاج: "كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد".

2- ما عاهد الإنسان عليه ربّه من خيرٍ يفعله ومن شرٍ يتجذبه.

3- ما عاهد الإنسان عليه غيره، ويدخل فيه الموعيد.

إن العهد في أي حالة من حالاته كان يجب الوفاء به ولو كلّف الإنسان جهداً أو مالاً ينفقه أو حرماً من نفعه. وللذكر المعاہد أن الله تبارك وتعالى سوّف يسأله يوم القيمة عن عهده الذي عاهد به، أوفي به أو نقضه؟ عن سعيد بن جعفر (رض) في قوله: (إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً)، قال: "يسأل الله ناقض العهد عن نقضه".

وفي سبيل التأكيد على أهمية الوفاء بالعهد والنهي عن نقضه بيّنت الآية الكريمة أن الذي يسأل يوم القيمة، العهد نفسه. قال تعالى: (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدَ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً)، أي: يسأل العهد لم نكذبنا؟ تبكيتناً وتوبيناً للذّاكث. كما تسائل المؤودة تبكيتاً لواندها، قال تعالى: (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلتُّهُ بِأَيِّ ذَرْبٍ قُتِلَتْ) (التوكوير/8-9). وسؤال العهد نفسه عن سبب نقضه لا ينفي أن صاحب العهد يسأل، بل سيسأله عن سبب نقضه ميثاقه الذي عاهد به؟ وهكذا نجد أن القرآن الكريم يأمرنا بمكارم الأخلاق كما في هذه الآية الكريمة حيث تأمّر في شفتها الأولى بالرحمة والعطاف على اليتيم وفي شفتها الثاني بالشرف والمصدق في التعامل مع الناس. ويرتّب الدين على التمسك بهذه الأخلاق الكريمة أحراً عظيماً وثواباً جزيلاً؛ فرحمهُ الخالق تستتر برع رحمة الخالق كما في قوله تعالى: (وَلَمَّا خَشِنَ الَّذِينَ لَمْ يَرْكُوا مِنْ خَلْقِهِمْ ذُرْرِيَّةً ضَعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَتَّقُوا اللَّهَ وَلَمْ يَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) (النساء/9)، وكما في قول النبي (ص): "الراحمون يرحمهم الرحمن". كما أن الدين يحذر تحذيراً بلبيغاً من مخالفته هذه الأخلاق الإسلامية في إطارها الاجتماعي. كما نجد هذا التحذير في أكل مال اليتيم بالظلم والغش والخداع وغيره من الأساليب الملتوية في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى طُلُّمًا إِزْمَمًا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ زَمَارًا وَسَيَمْلَأُونَ سَعَيرًا) (النساء/10). وفي التحذير من خلف العهد في قول النبي (ص): "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان". نسأل الله عزوجل أن يهبنا رحمةً تعامل بها الضعفة في خلقه وأن يرزقنا الصدق والوفاء بالعهد إنّه سميع مجيب. ▶